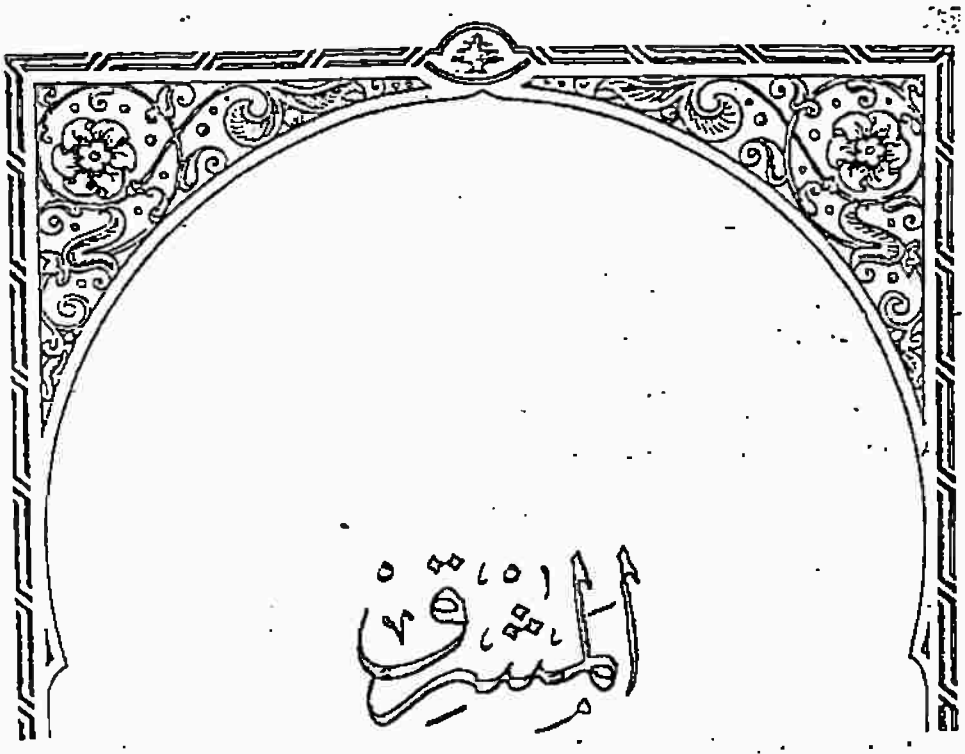

المشرق

السنة الواحدة والخمسون | ت٢ - كانون ١ ١٩٥٧

الطيب الاثر الاب لويس شيخو اليسوعي

منشئ مجلة «المشرق» ومؤسس المكتبة الشرقية (١٨٥٩-١٩٢٧)

بقلم الاب بطرس سارو اللبناني

يطيب لنا، لمرور ثلاثين عاماً على وفاة فقيد العلم والفضيلة (٧ ك١ ١٩٢٧-١٩٥٧)، الطيب الاثر الاب لويس شيخو اليسوعي، ان ننشر ترجمته على صفحات هذه المجلة «المشرق» التي انشأها وطالما غذاها بمقالاته وابحاثه القيّمة من دينية وادبية واجتماعية وتاريخية؛ وقام بادارتها نحوًا من ثلاثين سنة بغيرة ونشاط لا يعرفان مللاً ولا كليلاً، الى ان سقط في ساحة الجهاد شهيد العلم والدفاع عن الدين ومبادئه القويمة. وقد ترك من آثار قلمه الخصاب ما يؤلف مكتبة تشع بكل جليل نفيس وتنطق بما كان عليه ذلك الدماغ المفكر والقلب الكبير من نهضة ادبية تظل غرّة في جبين شرقنا هذا ما كرّت الايام وتوالت الاعوام...

وقد اعتمدنا بهذه الترجمة على ما قدّمه لنا حضرة ابن شقيقه الاخ رفائيل شيخو اليسوعي ، من معلومات كانت بيده أو جمها مما روته بعض الصحف والمجلات ، او تناولها عن السنة من عايشوا الاب المترجم رحمه الله . وسنقتصر في ذلك على مراحل حياته وخطوطها الكبرى من حيث هو فتى وراهب دارس وكاهن عالم عامل لا سيما هذه المرحلة الاخيرة ، اذ يعجز العلم عن استيعاب كل ما انطوت عليه تلك الحياة الزاخرة باجل المعارف واكل الفضائل ؛ وقد انتشر شذاها في ربوعنا اللبنانية وفاح عبيرها شرقاً وغرباً .

الفتى

منشأه :

في قلب ما بين النهرين على مسافة نحو ٩٠ كيلو مترًا شرقياً من ديار بكر ، ونحو ٥٠ كيلومترًا غرباً من بلدة نصيبين المعروفة بوطن القديس فرام الشهيرة بمدارسها في ذلك العهد ، ترتفع سلسلة جبال ، شُيّدت قديماً على احدى قممها الوعرة قلعة عظيمة ما زالت قائمة ، على رغم عوادي الدهر . وتطل القلعة على سهل خصيب بمياه الخابور . وهو ساعد شرقي من نهر الفرات. وعند اسفل هذه القمة والقلعة تستقر مدينة ماردين على علو ٦٠٠ متر عن سطح البحر . قد أمست في الحرب الكونية الاولى ١٩١٥ مستنقع عذاب للمسيحيين الابرياء ، فاستشهد منهم الوف وفي مقدّمتهم المطران مالويان مع ١٦ كاهناً من شتى الطوائف. وكان آن ذاك سيادة المطران جبرائيل تبوني (نيافة الكردينال الحالي) شاهدًا لهذه المأساة يتمزّق قلبه ألمًا ولوعةً دون ان يتمكن من انقاذ تلك الضحايا البريئة، فكان دماء اولئك الشهداء بذارًا لكثير من الدعوات الكهنوتية والرهبانية:

في تلك المدينة كانت اسرة شيخو الكريمة الكلدانية تتمتّع بالثروة والرخاء ؛ وتضم بين اعضائها رجالًا اشتهروا بنفوذهم الواسع وعُرفوا بالتقوى والزهد، منهم خال المترجم الاب جبرائيل دنبو ، مجدّد الحياة النسكية ومؤسس رهبانية مار هرمزدا بقرب الموصل ، قد لُقّبت بالانطونية واستُشهد الاب جبرائيل دنبو بخناجر الاكراد ١٨٣٢ ، ونشر المثلث الرحمات المطران اسطفان كجو الكلداني تفاصيل استشهاده وترجمة حياته بمجلة (النجم) ١٩٣٠ التي تصدر في الموصل :

في تلك المدينة ماردين ابصر المترجم النور في ٥ شباط ١٨٥٩ وكان والده الشماس يوسف شيخو وجيه بلدته وزعيمها ؛ اشتهر بتجارته الواسعة كما عُرف باستقامته وحسن تقواه . وقد زار الاماكن المقدسة فلُقّب بالمقدسي كما لُقّب « بالشيخ » لعلو مقام أحد اجداده ؛ ثم أُطلق هذا اللقب على الاسرة بأجمعها مع اضافة حرف (الواو) وفقاً للهجة البلاد المتفوّق فيها العنصر السرياني الكلداني.

كان للشيخ يوسف المذكور من زوجته اليصابات ثمانية اولاد اكبرهم البكر عبد المسيح والاب (ستانسلاس) واصغرهم رزق‌الله (الاب لويس) . فمنذ ترعرع هذا الاخير ادخله أبواه مدرسة الآباء الكبوشيين المرسلين في ماردين ، فنال قصب السبق على اقرانه لما كان عليه من حدّة الذكاء والذاكرة والرغبة في التحصيل ؛ عاكفاً على ممارسة الصلوات والحفلات الدينية فشخصت الانظار اليه وكان الكل يتساءلون ما عساه يكون رزق‌الله الفتى ؟ اليك الآن ما كان من تدبير العناية الالهية في انضواء الاخوين عبد المسيح ورزق‌الله شيخو تحت لواء القديس اغناطيوس دي لويولا في جمعية الآباء اليسوعيين . في السنة ١٨٥٠ اقبل الى مدينة ماردين المونسنيور بلانشه (Blanchet) اليسوعي النائب الرسولي في ما بين النهرين ومعه رفيقه الاب لابور[1]. فتعلق بهما قلب الشاب عبد المسيح شيخو فاراد بدعوة من الله ان يهجر العالم ويتجند في معسكر الآباء اليسوعيين فسار الى ديرهم في غزير (لبنان) وانخرط في سلكهم باسم الاخ استانسلاس شيخو (١٨٥٣)

ولما قدمت والدته اليصابات الى زيارة الاراضي المقدّسة وصحبتها الفتى رزق‌الله عرّجت على دير غزير لزيارة ابنها البكر . وما وقع نظر الفتى رزق‌الله على شقيقه الراهب اليسوعي حتى أحس بقوّة داخلية جذّابة تدفعه الى ترك الدنيا والمكوث في الدير لجوار تعالى وخير النفوس. وما زال يلحف على والدته التقية الى ان استمالها لتقدمه هو أيضاً كشقيقه ذبيحة رضىً لله ، ولم يكن يتجاوز الثامنة من العمر . فتسلّمته المدرسة الاكليريكية غصناً نضيراً وغرسة صالحة في أرضها الطيبة فنما وأينع وازهر مبتسماً لشمس المحبة الالهية تخصبه بأشهى ثمار الفضائل واسمى العلوم الدينية والدنيوية . فانصرف الى درس اللغتين العربية

١) وعند عودتها الى حلب هاجمها الاكراد وقتلوها بالقناجر قرب بلدة سوبرك سنة ١٨٥٣

والفرنسية فأبدى دلائل النجابة والذكاء مما ادهش اساتذته ورفاقه. وما مضى على وجوده في مدرسة غزير سبع سنوات حتى اختمرت دعوته الرهبانية، فصارح رؤساءه بذلك وسألهم ان يقبلوه في عداد ابناء الرهبانية. فأجابوه بعد ان تحققوا صدق دعوته وقبلوه وهو في الخامسة عشرة من العمر. وفي السنة ١٨٧٤ أبحر الى فرنسة للدخول في دير الابتداء في مدينة لونسله سونيه (Lons-Le Sonier) وسُمّي الاخ لويس. فقضى هناك ثلاثة اعوام مكبًّا على اقتباس الفضائل الرهبانية ودرس الآداب اليونانية واللاتينية والفرنسية. ثم رجع الى بيروت حيث كانت المدرسة الاكليريكية الشرقية ومدرسة غزير قد نُقلت اليها لتكونا نواة كلية القديس يوسف.

الراهب والكاهن التقي الغيور

لما عاد الاخ لويس من ديار المغرب عهد اليه الرؤساء بتدريس الآداب العربية. وفي الثامنة عشرة من عمره (١٨٧٧) كان استاذًا للصفوف العليا، فأخذت مواهبه تنمو وتزهو بين جدران الكلية اليوسفية حيث طوى أحد عشر عامًا مدرسًا نشيطًا واستاذًا عاملًا. وفي السنة ١٨٨٨ غادر بيروت ميممًا انكلترا لينهي فيها دروسه اللاهوتية. وبعد درس اربع سنوات رُقّي الى درجة الكهنوت المقدسة (١٨٩٢). ثم قفل راجعًا الى بيروت بعد ان اتصل بكثير من العلماء المستشرقين وزار خزائن الكتب الكبرى ووقف على ما فيها من المخطوطات الشرقية. عاد الى كلية القديس يوسف ليواصل تشييد البناء والصرح العلمي الذي كان قد وضع اساسه قبل ذهابه الى عواصم اوربا. فكرّس جهوده الجبّارة، مدة ربع قرن، بالتعليم وادارة الدروس العربية، واعار اهتمامه الخاص المكتبة الشرقية فجمع كتبها ومخطوطاتها بشق النفس ومعاناة الاسفار العديدة الى مختلف البلدان والامصار، دون ان تصرفه هذه المهام عن اعماله الرسولية. فكان لا يني عن القاء الرياضات الروحية والمواعظ وسماع الاعترافات كلما دعا الواجب. وكان مثال الخشوع والورع في القيام بفروضه الدينية وتقيده بالقانون الرهباني لا يحيد عنه قيد شعرة. شديد التعبد لقلب يسوع الاقدس ولسيدتنا مريم العذراء كثير الثقة بشفاعتها. ومما يروى عن تعلقه الوثيق بالام الالهية ما قصه الاخ

اسكندر خوري اليسوعي قال : « رأيت ذات مساء ، الاب لويس يحرّر مقالاً وهو يتمشى على السطح تحت ضوء القمر الباهت فاشفقت على عينيه ان يناهما مكروه . فدنوت منه وسألته ان يكف عن العمل رأفة بناظريه فما كان منه الا ان ابتسم وقال : « اسمع يا اخي ، انني حين كنت في دير الابتداء بفرنسه طرأ عليّ ضعف شديد حمل الرئيس على التخوف من حلول مصيبة تذهب بعينيّ فتطفئهما . وكان من البديهي ، لو وقعت المصيبة ، ان اخسر دعوتي واضطر الى العودة من حيث أتيت . بل ان الرئيس همّ بارجاعي الى الوطن . ورأيت نفسي تجاه الامر الواقع وما في اليد حيلة. ولم يبق لي من مرجع سوى العذراء القديسة ام الرحمة والتعزية ، فاسرعت الى مذبحها في الكنيسة اخاطبها بثقة بنوية حارة ، فجثوت عند قدميها وابتهلت اليها بنفس كئيبة وقلب يائس قائلاً : تعلمين يا سيدتي انني اصبحت منذ سنوات جندياً لابنك يسوع فان شئت ان اظلّ تحت رايته ، اخدمه طول حياتي ، فامنحيني نظراً سليماً صحيحاً لمواصلة دعوتي الرهبانية . خابت آمالي في اطباء الارض ، فلا تخيبي أملي فيك ايتها الطبيبة السماوية. ومنذ ذاك الحين ، اي منذ خمسين سنة وانا متمتع بنظر صحيح اجهد عيني فلا اريحها بنظّارة ما . وكل ذلك بفضل ام المعونة مريم العذراء الحنونة».

اما فضائله الرهبانية فحدّث عنها ولا حرج ، وقد امتاز بوداعته وتواضعه واستسلامه لارادة الله تعالى ايّان المحن والتجارب كما يبدو ذلك في بعض رسائله الى ابن اخيه الاخ روفائيل شيخو الذي كان مع بعض الاكليريكيين في احد اديار رهبانيتنا اللبنانية في انتا. الحرب الكونية الاولى. فكتب اليه : « ان العزلة لا تكون شديدة الوطأة على من يعرف ان يصلّي ويشتغل ؛ ذاك عنوان المتوحدين القدماء. وهو عنوانك وشعارك في زمن الصيف هذا ».

وكتب اليه بمناسبة عيد الفصح للسنة ١٩١٥ قال : « اذا كانت افراح هذا العيد في هذه السنة اقل ابهة منها في الماضي، فالتعزية الباطنية هي فائضة فينا. على المسيحي الا يستسلم الى الحوادث الخارجية ، بل عليه ان يكرر مع القديس بولس : « احتفظوا بالفرح الباطني الذي ليس لاحد ان يخطفه منكم. اذا كان خدام الله الامناء يجدون ما يبتهجون به حتى في ضيقات الحياة ، فما ذلك الا لانهم يعوفون يد العناية الالهية التي لم تسمح بذلك الا لخيرنا وسعادتنا ».

ومما قاله فيه سيادة الوكيل البطريركي الكلداني في حاب هذه العبارة : « قد تأثرت من فضيلة الاب شيخو وانشرحت من عطر وداعته الفائح اكثر مما أخذت بغزارة علومه السامية التي رنَّ صداها في الشرق والغرب » .

ومن حديث للاب لامنس معاصر الاب شيخو وزميله : « كنت تلقاه بشوشاً ، وضيع النفس ، حلو الحديث ، فقد صح فيه كلام المسيح الوديع : « طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض ». لقد امتاز الاب شيخو بوداعته وتواضعه رغماً عما كان عليه من شهرة بعيدة ومنزلة رفيعة في عالم العلم والادب وعند من كانوا يقدّرونه قدره . وهذا ما كنت المسه بتلك الشخصية الفذة المشعة باسمى الفضائل وأجلّ المناقب ، يوم كنت دارساً في كلية القديس يوسف ، ثم رئيساً على اخوتنا الرهبان التابعين الدروس فيها والمقيمين في دير مار انطونيوس المجاور الكلية ؛ وكان الاب شيخو رحمه الله ، مديراً للدروس العربية ولمجلة « المشرق » هذه . وكنت واياه على اصفى ولاء وأخلص مودّة . فاذكر ما كان عليه ذلك الدماغ المفكر من غزير المعارف وما كان ينبض به ذلك القلب النقي الكبير من الغيرة الرهبانية على مجده تعالى وخير القريب ، والدفاع عن الدين الحق المقدّس ، يدافع عنه بقلمه ولسانه . وكان في غيرته جريئاً جدًا لا يتهيب موقفاً ولا يخشى خطرا . وان لم يكن له من المواقف اللامعة سوى وقفته في وجه الماسون لكفاه ذلك فخراً. لقد حاربهم وصدمهم صدمات عنيفة في مقالات مشهورة في « المشرق » ولم يكن يأبه لتهديدهم اياه بالاذى والموت، بل ظل ثابت الجنان يناهض اعداء الدين والحقيقة بكل ما اوتيه من حجة دامغة ومنطق صادق ، ورأي سديد . تلك كانت فضائل الاب شيخو الراهب والكاهن واللاهوتي والفيلسوف والمجادل ، ولم نذكر منها الا قليلًا من كثير.

العالم العامل

ما تسلّم الاب شيخو ادارة الدروس العربية في كلية القديس يوسف حتى انصرف الى خدمة هذه اللغة وآدابها ؛ واذ رأى افتقار الطلبة الى كتاب يسهّل لهم درس لغتهم ويرغّبهم في اكتشاف كنوزها ، اقبل في السنة ١٨٨٢ على نشر « مجاني الادب » تلك المجموعة النفيسة التي انتخبها من الكتب والمخطوطات

المديدة في الشرق والغرب ، ويوّبها ستة مجلدات متدرجة ، وزينها واوضحها بالشكل الكامل. ثم بتعليق الشروح الواسعة عليها من لغوية وادبية وتاريخية وجغرافية وعلمية وفهارس . وفي اربعة مجلدات ذكر فيها ، كما في اواخر الستة الاولى ، الكثير من تراجم شعراء الجاهلية والاسلام وعلماء العربية وفقهائها ومؤرخيها وجغرافيها . ولسنا نبالغ اذا قلنا ان تاريخ الآداب العربي لم يعرف كتاباً اوسع انتشاراً واوفر فائدة من « المجاني » . فقد بلغت طبعات بعض اجزائه الثلاثين. وكان نحو نصف قرن ، دستور التعليم العربي في مدارس الشرق والغرب ، ابتدائية وثانوية وعالية .

وفي السنة ١٨٨٣ وضع كتاب « مرقاة المجاني » ليسهل للمبتدئين الصعوبات التي يقعون عليها في تلك المجموعة الواسعة. ولا يزال كتابه « علم الادب في الانشاء والعروض والخطابة » نموذجاً تمشى عليه المدارس في تدريسها هذه الفروع الثلاثة.

ورغماً عن قيامه بمهام التدريس والتأليف كان يرئس المحفل الادبي ويديره بلباقة ونشاط ويعنى عناية خاصة بادارة الروايات العربية ويسهر بنفسه على تلقينها وتمثيلها ، تاركاً الاثر الطيب في نفوس الطلبة . ولما رأى نطاق التدريس ضيقاً امام طموحه وهدفه السامي ، عرض على رؤسائه انشاء مجلة تكون غايتها خدمة العلوم والآداب العربية فاستحسن الرؤساء اقتراحه وعهدوا اليه بأن يتولى بنفسه ادارة المجلة وتحريرها فقام بهذه المهمة خير قيام واصدر الجزء الاول من « المشرق » في كانون الثاني من السنة ١٨٩٨ وظل يصدرها مرتين في الشهر حتى السنة ١٩٠٨ ، فارتأى بعد ذلك اصدارها شهرياً اي مرة في الشهر مع بقاء عدد صفحاتها على ما كانت عليه اي نحواً من الف صفحة في السنة وكان بقلمه السيال يدبج معظم مقالاتها ، معالجاً المواضيع التي تدل على فيض قريحته وسعة معارفه وسداد رأيه في مختلف الشؤون والمباحث من دينية وروحية وادبية واجتماعية وتاريخية واقتصادية. فكان لمجلته هذه التي ادارها سحابة ربع قرن ، منزلة رفيعة عند العلماء شرقاً وغرباً . وقد كتب المستشرق باربيه دي مينارد في المجلة الاسيوية ملخصاً مقدمة العدد الاول من « المشرق » الطالع ، قال : « مقدمة عربية تأنق بكتابتها الاب لويس شيخو رئيس تحرير مجلة المشرق ، قد اعرب عن فكرة الجامعة اليسوعية في اصدارها هذه النشرة الجديدة ، هي

فكرة منافس شريف ومثمر فيما بين العلم الاوربي وبين الثقافة العقلية الشرقية ».
لقد كشفت هذه المجلة لاوربا كنوز الشرق وفي الوقت نفسه ايقظت في عدد وافر من الشرقيين، روح التدقيق والتنقيب والرغبة في النهضة الادبية. ولم تكن الخمسة والعشرون مجلدًا من « المشرق » التي اذاب خمسًا وعشرين سنة في تدبيجها ، لتصرفه عن التأليف ووضع الكتب الشائقة . فكان يتناول شتى المواضيع بما اتاه من المصنفات القيمة التي تشهد له بطول الباع في خدمة العلم والامة بفروعها العديدة . وذلك عمل خطير شاق يعجز عن القيام به الكثيرون من الكتاب والادباء . ونظرة واحدة الى لائحة كتب المطبعة الكاثوليكية تنبئ بما الاب لويس شيخو من تآليف ناضجة التفكير مختمرة الرأي ، طافحة بالابحاث اللغوية والمقالات الادبية . فمن « فقه اللغة » الى « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » الى « شعراء النصرانية » (١٨٩٠) قبل الاسلام ؟ تد اتمه بثلاثة اجزاء بعد الاسلام (١٩٢٢—١٩٢٦) .

وقد جمع تراجم الشعراء الجاهلية واشعارهم من المخطوطات والمطبوعات المتفرقة وبوبها وشرحها وذكر اختلاف الروايات فيها . ولم يثبط عزيمته ما عاناه في هذا العمل الشاق من التعب الكثير والتنقيب والتحديق في تلك المخطوطات التي تقادم عهدها فعلاها الغبار وفعلت فيها يد الدهر وذهبت ببعض حروفها وسطورها . ولهذا وصف المستشرق س. نالينو همة الاب شيخو ، مقدرًا جلده وصبره على العمل ، فذكر اشتغاله في رثاء الخنساء وابن السقيط وكليلة ودمنة مع جميع ما أتاه من الانتقادات العلمية والشروح المفيدة .

وكان اول ما نشر من تلك الابحاث، مقالاته الخالدة في الاستنتاج والتنقيب عن « الاحداث الكتابية في شعراء الجاهلية »[1] فتلقاها العلماء بمزيد الاعجاب والثناء . وفي السنة ١٩٢٢ اتم ذلك الكتاب النفيس الذي كان بدأ به قبل الحرب ، الا وهو « كتاب النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » . اليك ما قاله فيه المفكر المدقق الدكتور فيليب حتي احد اساتذة الجامعة الاميركية ، في مجلة الكلية (٩/١٩٢٢—٢٣ / ٢٨٥) ، وقد سر كل السرور لظهور كتاب يروي ظمأه الى البحث الوصفي ، قال: « انه لا يصعب علينا ان نتصور

[1] المشرق (٧/١٩٠٤ : ٥٣٠)

الاب لويس شيخو اليسوعي

١٨٥٩ -- ١٩٢٧

الطريقة التي جرى عليها المؤلف في وضع كتابه هذا، فانه لم ينفرد الى شاطىء بحر او تحت شجرة في ليلة مقمرة ولم يحك من وجدانه أفكاراً ومن مخيلته آراء، بل عمد الى المجلدات والكتب والى المجلات والتآليف وقضى الوقت الطويل يفتش في ثناياها عن المادة التي يطلبها وينقب في بطونها عما يتناول موضوع بحثه. ثم جمع هذه المادة ومحصها وغربلها ونقحها وبوبها واستخرج منها استنتاجاته وقدم للعالم نتيجة مجهودات عقلية، تناولت عقوداً من سني حياته في كتب يطالعه القارىء في خلال ساعات. هذا هو التأليف العلمي الصحيح»[1].

كان الاب شيخو عارفاً اثنتي عشرة لغة منها العبرانية واليونانية القديمتان وقد درس كل هذه اللغات وكشف عن غوامضها تحقيقاً لما كان يهدف اليه من انشاء مكتبة شرقية تجمع بين جدرانها المخطوطات الشرقية القديمة والآثار الادبية الرائعة. فانه لما قدم بيروت في السنة ١٨٧٩، لم تكن هذه المكتبة تحتوي الا على النذر القليل من الكتب مما لا يؤبه له، اما عند وفاته فكانت تشتمل على ٤٠،٠٠٠ مجلد و٣٠٠٠ مخطوطة اشتراها هو نفسه ونسخ بعضها بيده. فكان في كل صباح يلازم المكتبة ساعات طويلة مشتغلاً في الكتابة. وقد عانى في سبيل اغنائها بالكتب والمخطوطات القيمة، الاسفار البعيدة حتى الى الهند. وزار اكثر عواصم اوربا واطلع على ما تحتوي عليه من الآثار الشرقية النفيسة والمخطوطات العربية الفريدة فاقتبس منها ما استطاع واستنسخ ما توفر له استنساخه. وكان الرؤساء يمدونه بكل ما لديهم من المساعدات المادية والادبية للقيام بهذا العمل الخطير. ولهذه الغاية كان يجول في قرى لبنان واديرته وعواصم سوريا كدمشق وحمص وحلب . . . وفي السنة ١٨٩٥ قدم الى ما بين النهرين وكانت يومئذٍ فريسة الاضطراب في العهد الحميدي من جراء اعتداءات المغول ومع ذلك غامر الاب شيخو بنفسه وزار مع أحد الآباء اورفا وماردين حيث افتقد امه واخوته، ثم قصد الى ديار بكر فالموصل وبغداد ومنها الى بماي. وعاد الى بيروت بعد سفر شاق دام اربعة أشهر توفق فيه الى جمع مخطوطات عديدة نفيسة.

---

١) المشرق (٨٦ / ١٩٢٨ / : ٩١) من مقال الاستاذ فؤاد افرام البستاني : تأثير الاب شيخو في تاريخ الاداب العربية.

ان هذه المكتبة هي من اجلّ المكاتب في الشرق،بل وفي الغرب ايضاً. وهي مأثرة عظيمة تنطق بفضل الاب شيخو وتحفظ له ذكرًا طيباً لا تمحوه يد الدهر.

وفي خريف سنة ١٩١٣ دخلت تركيا الحرب الكونيـة الاولى فاحتلت جنودها كلية القديس يوسف وانتزعتها من يد الآباء اليسوعيين الذين لجأ بعضهم الى دير مار انطونيوس في بيروت ومنهم الاب لويس شيخو ، فأخذ يفكر ماذا عساه يكون من امر المكتبة الشرقية ومخطوطاتها ثمرة اتعابه وعرق جبينه . فشق عليه جدًا ان يترك خزانة كتبه هذه العزيزة على قلبه ولا سيما بعد ان احس بان الحكومة التركية تنوي ابعاده لكن الله تعالى هيأ لـه كاظم بك والي بيروت الذي كان يقدّر فيه العلم ويحترم الفضيلة فسعى لدى جمـال باشا السفّاح في ابقائه في بيروت ونجح مسعاه .

وفي السنة ١٩١٦ طلب اليه هـذا الوالي ان يضع كتاباً في تاريخ بيروت وآثارها القديمة فقبل بهذا العمل ، شرط ان تفتح له المكتبة الشرقية. فكان له ذلك فاتخذها فرصة سعيدة نظّم فيها جدولًا ضافياً لهذه المكتبة حفظاً على نفائسها . واستطاع بهذه الواسطة ان يأتي دفعتين في اليوم ، صباحاً ومساء ، للقيام بمهمته . لكن خصومه الماسون وشوا به الى جمال باشا فعزم على نفيه وكتب الى الوالي كاظم بك في ذلك ، فاجاب قائلًا : « ان الواجب يقضي علينا بأن نحترم هذا الرجل لخدمه الجمة للعلم ولا يسوغ لنا ان نسيء اليه » وبهذا كان سعي الماسون فاشلًا. وقد وصفته مجلة « الملانج » وذكرت سكنته المألوفة في تلك الايام العصيبة قالت: «القلم بيده يدوّن خواطره العلمية او ينقح ما عنّ له من الادلة. طُلب من جمال باشا الى المجلس العرفي العسكري وبينما كانوا يقضون في امره كان هو مكبًا على نصوص قديمة يقلّبها بين يديه،فلما موقفه هذا الحرّ الى احد ضباط المجلس،فقال له معاونه: « دعه انه سلطان اللغة العربية ».

— ولما اقترح ناظم بك وضع (سالنامه) للبنان طلب الى اليسوعيين القيام بهذه المهمة فكتب الاب صالحاني القسم الجغرافي . وبحث الاب شيخو في الآثار القديمة وعهد الى الامير كيين بالفصول الجيولوجية والتاريخ الطبيعي والاقاليم. وكانت مكافأة الاب شيخو عن هذه الاتعاب ، شيئاً من الغلّة والقوت اليومي !! وقد تمكن في تلك الفرصة السانحة ان يحتفظ باهم المخطوطات التي كانت في المكتبة

انلا تعبث بها ايدي الضياع او يطمع بها طامع . ويعجز القلم عن وصف ما عاناه هذا الاب البار في تلك السنوات الاربع التي مرّت عليه كأجيال وكان فيها مستسلماً للارادة الالهية .

وما وضعت الحرب اوزارها حتى أخذ يفكّر في مواصلة اعماله ، على رغم ما ألمّ به وبأهله من البلايا والمحن . فكنت تراه كسابق عادته يقضي الساعات الطوال، امام مائدة الشغل في المكتبة الشرقية تحيط به مئات الكتب والرسائل والمجلات الشرقية والغربية . ويواصل حملاته الشديدة على الماسونية كاشفاً القناع عما تضمره من الشر للكنيسة وابنائها . وفي السنة ١٩٢٣ اصدر رسالة ضافية ضد هذه الشيعة المفترقة .

وتقديرًا لفيض انتاجه العلمي الذي غمر به البلاد اهدته الحكومة اللبنانية وسام المعارف الذهبي . ومما جاء في احدى فقرات مرسوم الاهداء هذه العباره البعيدة المرمى : « وخدم الاب شيخو لبنان خاصة وبلاد الشرق عامة بما نشره من التآليف عن تاريخها وآثارها وعلومها حتى بلغت مطبوعاته المئة والعشرين مجلدًا فاستحق شكر لبنان » .

وهذه المئة والعشرون مجلدًا من نتاج الاب شيخو توازي في نظر المفكرين والعلماء الوف المجلدات التي تطلع علينا بها المطابع ؛ ولا سيما وهي في مجموعها تتطلب الوقت الطويل والتمحيص الشاق والاستقراء الرصين . وفي هذا ما فيه من تنقيب مستمر ودقة ملاحظة. فاذا أمعنا النظر في هذا كله، وقفنا على صورة، ولو مصغّرة، للجهود والاتعاب التي عاناها المترجم في خدمة الامة والعلم والدين.

وقد ذاع صيته بين العلماء المستشرقين فأكبروا همته وقدروه حق قدره . دعوه لعدة مؤتمرات علمية في مختلف البلدان الاوربية كبرلين وكوبنهاغ حيث كان يتصفح المخطوطات العربية بعد أن احس بثقل السمع وكان موضوع اعتبار الرجال الكبار؛ وكثيرًا ما كان مرجعاً لبعض المسائل العلمية والتاريخية وغيرها. وقد وقف معظم معلوماته وجهوده بوجه خاص على خدمة الشرقيين كما يدل عليه شعاره العلمي المدرج في اول صفحة من المشرق حيث يقول: « اني افضل دائماً كل الابحاث المتعلقة بالشرق والطوائف الشرقية . . . لئلا يقال : ان الغريب ادرى بما في البيت من اهله». لذلك تراه قد وجه جميع جهوده في خدمة دينه المحبوب وهذا الشرق العزيز.

وفي السنة ١٩٢٥ تألفت لجنة من نخبة رجال العلم والادب للاحتفال بيوبيله الذهبي لخمسين سنة صرفها في الرهبنة مجاهداً في خدمة الدين والعلم . وقد ضم ذلك الاحتفال كبار رجال الدين والدنيا ، تبارى فيه الخطباء والشعراء اطراء ومدحاً للمحتفى به . ولا يسمنا المقام لذكر كل ما قيل فيه ، فنكتفي ببعض ما جاء في القصيدة العصماء للمرحوم الخوري بطرس البستاني استهلها :

« كلَّ اليراعُ وما كَلَّت قذفتْ به وانظر الى الذكر الذي احرزتَهُ »

. . . .

لفةٌ حملت لواءها ، منذ الصبا وتشرته في الخافقين وصُنتَهُ »
ولكم علا بين اللغات مقامها لمَّا تحلَّت بالذي رصَّعتَهُ »
« ما الشرق الوهّاج الا كوكبٌ ملأ البلاد هُدىً بما اودعتهُ »
« « الصدّاح الا بلبلٌ سكرت به الاذان مُذ انطقتهُ »
ذاب الحديدُ ولم تذب الك همَّةٌ وبدا لها الصعب الجموح فرُضتَهُ »
خمسين عاماً قد طويت محلقاً كالنسر تهزأ بالذي عاركتهُ »
وشارك الحق المبين بصونه قام على الحق المبين وقفتهُ »

. . . .

« لو كانَ يُنصَبُ في الحياة لمحسنٍ أثرٌ على ما شاد عمّا شدتهُ »
نصبوا لك التمثال فوق منارة شمّاء من مجموع ما انشأتهُ »

ومن قصيدة للاستاذ حليم دموس ضمّنها بتاريخ موفق لليوبيل :

« نعم الحياةُ حياة العلم والادب قرّبها خالد في صفحة الحقب »

. . . .

« خمسون عاماً ! ! ! وكم فيهنَّ من أثرٍ ومن جهادٍ ومن جهد ومن نصبِ »

. . . .

« جمّةٍ كغرار السيف ماضيةٍ الى اقتطاف « معاني » الصحف والكتُبِ
لو قيل في الهند او في الصين مكتبةٌ لطار من قطبٍ قاصٍ الى قُطُبِ
أو قيل في الشُّهبِ سفرٌ خطّه قلم لراح ينشده في السبعة الشُّهُبِ
بمثلِهِ فلتَتِه ام اللغات على مثله ولتُنافسْ دولة الادبِ
يا ايها الشيخ يا من لست اذكره الّا ذكرت مثال الجد والدأبِ
سِرْ في جهادك واستقبل تحيتنا فان فيها هتاف العالم العربي
إنْ يفرح الغربُ في يومٍ يؤرخه « فالشرق يفرح في يوبيلك الذهبي »

ووقف على الاثر الشيخ ابراهيم المنذر مُنشداً هذين البيتين وهو من زعماء الماسون الذين كانوا حاضرين ، قال :

« طويت خمسين عاماً في الجهاد ولا تزال تنشر ما قابَ الزمان وعا »
« كفاك فخراً واجلالاً وتكرمةً أنَّ النقيضَين في برِيلك اجتمعا »

يقصد بذلك الماسون والكاثوليك

وكان لي الحظ بأن احضر هذا الاحتفال الباهر واكون من جملة المهنئين . فرأيت استاذنا وصديقنا الاب لويس يتململ حياء ويتضاءل تواضعاً امام ما يوجه اليه من مدح وثناء . ثم يقف في نهاية الحفلة وقد ارتسمت على وجهه تلك البساطة والوداعة المعهودة . فشكر للحفل الحاضر وقال : « اني وانا الراهب البسيط المتزوي في ديره ، لا استحق مثل هذا التكريم والثناء . واذا كنت قمت بخدمة لهذه المدينة وللآداب العربية مدّة نصف قرن ، فما الفضل في ذلك الا لتهذيب تلقيته من والدتي في صغري، ولثقافة نلتها من امي الجمعية اليسوعية التي وسّعت لي مجال الاشتغال العقلي وسهلت لي طريق العلم وامدتني بما يلزمني للابحاث العلمية، فلها كل الفضل واليها ليس الى شخصي الحقير يوجه كل مدح وثناء ».

— وكانت يد العناية تسنده في جميع مراحل حياته فتسهّل ما يطرأ عليه من المصاعب . اخبرنا المرحوم الاخ يوسف ماهر اليسوعي يوم كان متسلماً ادارة المطبعة الكاثوليكية، قال : « في الرابع والعشرين من شهر نيسان السنة ١٩٢٤ ، تعطلت الآلة التي كانت تطبع عليها مجلة المشرق ، فبدلاً من أن تطبع صحيحاً ، أخذت تمزق الاوراق وتعرقل العمل ، ففككناها . وبالرغم من مهارة الخبراء الاختصاصيين في معالجتها مدّة ثلاثة ايام لم نعرف السبب : فالتزمت ان اخبر حضرة الاب لويس مدير المجلة وقلت له يا أبتِ ، لا حيلة ولا وسيلة لدينا لطبع « المشرق » في هذا الشهر فأرجو المعذرة ؟ فاجابني : لا يجوز ابداً ان نحرم مشتركينا عددهم الشهري ، فاذا عدِمْنا الوسائل البشرية ، فلدينا وسائل اخرى سماوية فبايماننا الحي وثقتنا بالله نتغلب على هذه الصعوبة. سر معي الى المطبعة وأرني الآلة العاصية ، ولما رآها بأم عينه تمزق الورق ، طلب كأس ماء وصلى عليه رافعاً عينيه الى السماء ، ثم امرني برش الماء المبارك على الآلة

وفعلاً اخذت تتحرك وتطبع صحيحاً كعادتها. فاندهش الحاضرون من مفعول صلاته الحارة، اما هو فلم يلبث ان تركهم ذاهباً الى عمله فراراً من المدح والثناء».

مرضه، وفاته، مأتمه

في صيف سنة ١٩٢٧ ذهب الاب شيخو الى وادي النيل، باحثاً منقباً، مجدداً نفسه وصحته في حرّ مصر اللاذع وجوها الملتهب، وما أن رجع الى بيروت حتى أخذ يشكو مرضاً طفيفاً لم يقعده عن مزاولة اعماله. ورأى الاطباء من باب الاحتياط ان يترك اشغاله المعتادة ويدخل المستشفى، حتى اذا ارتاح فيه بعض الزمن، تجرى له عملية جراحية تعيد اليه كمال الراحة والعافية. فخضع لارادة الرؤساء ومشورة الاطباء؛ ودخل المستشفى. واذ كان يستمد للعملية ويأخذ بعد حين وآخر بعض المعالجة، كان لا ينقطع عن مألوف عمله من تحبير المقالات ومراقبة طبعها. ولم يكن الاطباء يجدون مانعاً يمنعه عن ذلك، لما كان يتمتع به من مظاهر القوة وحسن البُنية. فأجريت له العملية ونجحت كل النجاح.

وبينما الجميع ينتظرون عوده حاصلاً على ما يرغبون له من البُرء والشفاء التام، اذا بأعراض غير مألوفة طرأت على امعائه، سببت له وهناً في القلب. فبذل الاطباء كل ما يقدر عليه الطب من المساعدات لتلافي الوهن الزائد، لكن الضربة كانت قاضية فلم تنجح فيها حيلة. فلفظ الاب لويس شيخو انفاسه الاخيرة بغتةً من دون نزاع. بينما كان المتولون تمريضه يستعملون الوسائل لتخفيف ما كان يشعر به. وكانت وفاته يوم الاربعاء في السابع من كانون الاول من عام ١٩٢٧، ليلة عيد الحبل بلا دنس. كأن هذه الام الرؤوف أبت الا ان تشرك عبدها الامين في افراح عيدها المجيد في عالم السعادة والبقاء.

— وما كاد يذاع في المدينة نبأ وفاته، حتى الناعت لسه القلوب، أسفاً وحزناً فاستفدحته الخواطر. فالتأم مجلس الوزراء وقرّر باجماع الرأي ان يهدي اليه وسام الاستحقاق اللبناني وقد وضعه رئيس الوزارة على جثمان الفقيد في الكنيسة قبل مباشرة صلاة الجنّاز. وقد اقبل على جامعة القديس يوسف رجال الوجاهة والادباء يشاطرون الآباء اليسوعيين مصابهم هذا الاليم. وقد زار كثيرون منهم جثمانه باكين، متبرّكين منه مترحمين عليه.

وما أزف موعد الجناز حتى امتلأت اروقة الكلية بالجموع الغفيرة وأنيرت الكنيسة بالانوار الكهربائية تغطيها شارات الحداد . فازدحم فيها المتوافدون فغصت بهم على رحبها. وأبى نفرٌ من الادباء الا أن يحملوا النعش على اكفهم ، وفي مقدمهم النائب الكريم الشيخ ابراهيم المنذر والاديب جورج افندي نقولا باز ، ومدير دار الكتب الكبرى الفيكونت فيليب ده طرازي ، فعاونهم في ذلك عملة مجلة المشرق والبشير والمصالح المختلفة في المطبعة الكاثوليكية. وكان بعض الاصدقاء والادباء قد طلبوا ان يقدموا الاكلّة فاعتذر اليهم مع الشكر لمنافاة ذلك عادات الرهبانية اليسوعية ولكن في الساعة الاخيرة ورد ثلاثة اكاليل كبيرة من غير سابق انذار. الاول من صاحب الظرفة وزير المعارف ؛ والثاني من رئيس المجلس النيابي محمد الجسر والثالث من نقابة الصحافة .

وعند نهاية الجناز نقل النعش بموكب فخم الى حيث غُيِّب عن العيون ذلك الذي ستبقى له فضائله واعماله الذكر الطيب والاثر الحميد دهراً طويلاً .

ولم تنته اذ ذاك ، مظاهر التكريم والاجلال نحو الفقيد الكريم ، لان الصحافة تناولت حياته وظلت اياماً تتحدث الى قرائها بذكرى ما خلف من جلائل الاعمال وخالد الاثار . وقد اجمعت كل الصحف ، حتى اللادينية ، على بكاء الاب شيخو الذي كان نبراس الفضيلة والعلم ومفخرة من مفاخر هذا الشرق واحد اساطين اللغة والاداب . ولم تكن وفاته أخف وقعاً لدى العلماء المستشرقين في اوربا ولا سيما في فرنسا والمانيا حيث عقد الادباء واصحاب القلم المقالات العديدة ، مكبرين المصاب في الفقيد الكبير وآثاره الادبية ، مما يدل على ان سمعة الاب شيخو لم تكن محصورة في دائرة الشرق فحسب ، بل تجاوزت الآفاق البعيدة . واليك بعض ما قيل فيه :

كتب الاستاذ ستروتمان باسم المستشرقين في هامبورغ (المانيا) قال : «نحن ايضاً لقد أضعنا بوته اختصاصياً كبيراً ونشعر بالفراغ الذي أحدثه فقدانه». وقد ايدى معهد علوم اوكرين في روسيا منتهى الاسف لهذه الخسارة الادبية وأعرب عن رغبته في تخليد ذكرى هذا العالم الجليل ...

وكتب الدكتور اينياس كراجاوفسكي كاتم اسرار دروس التاريخ والفلسفة في لينغراد : «ان الضياع عظيم لعلماء العربية في العالم باسره. فقد كان (الاب

شيخو) ، بلا نزاع ، العارف الاسمى في مجاهل الآداب العربية المسيحية ويمكن القول اننا لا نجد له خلفاً في هـذا الفرع . اما في بقية الفروع العربية ، فمن الصعب ان نجد له نظيراً . على ان مجلة « المشرق » التي اسسها وقام بادارتها تقدم لنا معلمة للدروس العربية وبالعموم للدروس الشرقية ، واني شخصياً احس بهذا الضياع ، اذ كان لي الشرف بان اجتني كثيراً من الدروس التي القاها في الفرع الشرقي وبان أتبع محاضراته فيما بين سنة ١٩٠٨—١٩١٠ . وكانت لي به علاقات ودية ولم يمتنع ابداً ان يمدني بارشاداته العلمية » .

وكتب الدكتور اغوسطس هافنر بما معناه : « ليس اعتباري للاب المرحوم (شيخو) بصفته بحاثة خطير واستاذ وعلامة كبير ، بل اكثر من ذلك ، اني أمتّ اليه بصداقة متينة وستبقى هذه الخاطرة في نفسي كاثمن الخواطر » .

وكتبت مجلة اميركا الشمالية : « المجلة الاميركية للغات والاداب العربية » — ويظهر مما اتى به الكاتب ، انه كان يعرف الاب شيخو شخصياً — « كلمة شكران لذكرى صديقنا الجليل والاستاذ النابغ في الادب العربي ؛ ان اسمه سيبقى خالداً فيما بين المستشرقين وفي قلوب الشعوب العربية ، ان تآليفه الجمة تشهد على سعة علمه وعلى ضمة نفسه وبساطة قلبه » .

ويحلو لنا ان نجعل كلمة الختام لاحد المستشرقين البلجيكيين المشاهير ، الاب هنري لامنس اليسوعي زميل الاب شيخو وقد عايشه سنين طويلة وكانا معاً فرسي رهان في مضمار الفضيلة والعلم . قال الاب لامنس :

« تلك كانت الخاتمة السعيدة لحياة هذا الزاهد الكبير ، العلامة النابغة ، الذي طار صيته شرقاً وغرباً . قلت الخاتمة السعيدة ، لان سعادة المجاهد الظافر لا تشبهها سعادة ارضية ، فقد ظفر الاب لويس شيخو في كلتا حالتيه ، بل قل في مضماريه : الزهد والعلم . وقد اثبتت حياته نبوغه وعبقريته في كليهما . اما في العلم فقد انارت تآليفه وكتاباته كثيراً من الحقائق العلمية ، لابناء مشرقنا العزيز . وكان كل ما كتبه ومحثه من المواضيع المبتكرة ، على جانب عظيم من السلاسة والوضوح » .